



حبر أبيض  
WHITE INK



## أ.د. حياة الرشيدى

# أدوات الغدر

الموت البطيء والغرق، ودس السم في العسل أدوات اعتاد عليها البلاط لأسباب في اعتقادهم فيها حماية للعرش السلطاني ولبقاء الأسرة الحاكمة.

ناهيك عن القتل المباشر وغير المباشر، والنتيجة النهائية هي المبتغى في التخلص ممن وقع عليه قرار الغدر.

وإذا ما ابتدئنا في ذكر امثلة على تلك الحوادث وأدواتها ومبرراتها، نبدئ بالمحظيات لدى السلاطين، ففي الحرملك يوجد ما هو أشد قسوة ووحشية عن خارجه، وفيه الظلم وهو أقسى أدوات القتل. منها نذكر أنه كانت تجرى عمليات لاستئصال المبيض، أو الرحم للجارية التي تخدم أقرباء السلطان، وذلك لقطع الطرق على أي منافسة محتملة ضمن دائرة العائلة الحاكمة. وفي حال ثبوت حمل إحدى الجاريات، كان يتم وضعها في كيس محكم ثم تقذف في النهر لتموت غرقاً، ولكي تكتمل صور أدوات القتل لا بد من الإشارة الى أنه اذا اعتلى العرش سلطان جديد، يتم ارسال نساء السلطان السابق وكل من يتبعها الى القصر القديم، المعروف باسم " قصر غير المرغوبات أو قصر الدموع " ولا يبقى لدى الجاريات المبعديات سور انتظار الموت البطيء بهدوء، بينما الحرملك يتجدد لاستقبال أخريات.

لفت انتباهي كتابة مؤلفة تركية تدعى أليف كروتية وهي حفيدة جارية عاشت في الحرملك من الخدم، ذكرت أن قيمة المحظية أو الجارية يقدر بين 1000 و 2000 قرش، في الوقت الذي كان ثمن الحصان يصل الى 5000 وأكثر، والسبب لأن الأسرى من النساء يتم تحويلهن بلغة العامة " ببلاش"، وبالتالي الأعداد ليست بالهينة.

ومن أدوات القتل أن العامة شهدت حقبات كانت تدفع ببنايتها للبيع حتى لا يمتن جوعاً أو تؤخذ قهراً، على الأقل ان تم بيعها تكن مصدر رزق لأسرتها.

لم يكن يسمح للجواري تعلم القراءة والكتابة، ولكن يتم تعليمهن الرقص والعزف والغناء ليتم بيعهن للأثرياء والكسب هنا أكبر.

ومن الحرملك قصة غدر أخرى ومنها السلطانة حفصة وزوجة سليم الأول ووالدة خلفه السلطان سليمان القانوني، وهي أول أميرة تحصل على لقب والدة السلطان وذلك في عهد ابنها.

فور اعتلاء الابن الحكم تنتقل والدته من القصر القديم الى الباب العالي في موكب مهيب يعرف باسم "والدة آلاي" أي موكب السلطانة الوالدة، ومن تلك اللحظة تصبح أعلى السيدات شأنًا طوال حكم ابنها، والمسؤولة الأولى عن جناح الحرم العثماني.

كان وجود والدة السلطان مهم جدا نظير العدد الكبير من الأشخاص والأنشطة داخل القصر، وإدارة كل ذلك. وقد كان رحيلها - بعد وفاتها - اشتدت شراسة الخلافات بين زوجتي السلطان سليمان "حُرْم" و "ماه دوران"، بما انتهى الى نفي الثانية واعدام ابنها. كما كان وفاتها غدر بزواج ابنتها أخت السلطان، إبراهيم باشا الصدر الأعظم عند القانوني، وكان أداة قتله خنقاً بأمر من السلطان، وتم دفنه في مكان غير معلوم حتى لا تقف على أطلاله زوجته - أخت السلطان -، وقد كان ذلك قهراً ميثاً لزوجة الصدر الأعظم، واداة رخيصة، تخلص بها السلطان، من قريبه، والأسباب سياسية ووشاية متعددة الأطراف.

وبشكل عام لم يكن السلطان على قدر من التعليم الكافي لأن الأغلب جواري، وقد الحقن الضرر بالسلطة الكثير منهن وباستغلال نفوذهن عندما يصبحن أمهات أو زوجات، ومنهن السلطانة نور بانو و السلطانة صفية و السلطانة كوسم ماه بيكر. وتلك ممارسات لم يغفل عنها التاريخ ودونها ولكن يتم تغييب الكثير منها، ومحاولة التشتيت عن كشف خباياه، ومن ذلك إغراق المؤلفات بذكر الأعمال الخيرية والوقفية على وجه الخصوص، والله اعلم بتلك الأحوال وما تخفيه الصدور. لقد اقدم سلاطين الدولة على جلب العبيد و اخصائهم حتى لا تحدث خيانة بين النساء، وهنا تكتب الكاتبة أليف كروتية بأنها أبشع جريمة وبأدوات قهرية لخدمة أهوائهم ولقد نهى عنها الدين الإسلامي بنصوص واضحة وصريحة. وتوضح المصادر التاريخية، أن من بدأ باستخدام الأغوات للخدمة في الحرملك السلطان مراد الثاني 1420-1451م، وتطور ذلك النظام في عهد ابنه السلطان محمد الثاني 1451-1481م، الذي توسع في شراء العبيد والنساء من أنحاء العالم كافة.

يلاحظ ان النظام الحاكم قوامه القسوة القهرية القاتلة للمشاعر والإنسانية، قبل القتل الدموي.